مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ISSN : 2353-0472
المجلد2، العدد4، (جوان2014) EISSN : 2600-6405

قراءة في العلاقات السياسية بين دولة بني زيان والمماليك من خلال المراسلات الدبلوماسية بين القرنين 7-9 هـ/13-15م

د. بالأعـرج عبد الرحمـن
قسم التاريخ-كلية العلـوم الإنسـانية والاجتمـاعية
جـامعة تلمسـان – الجـزائـر

تقديم

تعد الدول الزيانية التي تأسست بتلمسان سنة 633هـ/1235م من طرف قبيلة بني عبد الواد الزناتية الأمازيغية، وحكمت بلاد المغرب الأوسط، من بين الكيانات السياسية التي أثبتت وجودها على الساحة المغاربية طيلة ثلاثة قرون من الزمن، وكان حكامها حريصين على ربط العلاقات الدبلوماسية مع كل الدول المجاورة، شمالا مع الممالك النصرانية الأوروبية، وجنوبا مع ممالك إفريقيا الإسلامية ما وراء الصحراء، وشرقا مع دولة المماليك التي قامت في مصر والشام وامتد سلطانها إلى الحجاز ولامست حدودها الغربية دولة الحفصيين بتونس، وكانت بدورها مهتمة بأحداث بلاد المغرب الإسلامي. وما يلاحظ هو وجود بعض المراسلات بين الدولتين الزيانية والمملوكية، أمكن من خلال قراءتها رسم معالم العلاقات السياسية التي ربطت الدولتين، وتحديد طبيعتها.

1 - بداية العلاقات الزيانية المملوكية

تأسست الدولة الزيانية بخمسة عشرة سنة قبل قيام دولة المماليك بالمشرق، ولا شك أن مؤسس الدولة الأمير يغمراسن بن زيان كان على علم بمجريات الأحداث الدولية التي كانت تحيط به خاصة ببلاد المشرق الإسلامي، وذلك في ظل توافد أفواج الحجيج المغاربة بشكل مستمر على البقاع المقدسة ومرورهم بالأراضي المصرية، لكن المصادر المتاحة لدينا لا تفيدنا بوجود أية مراسلات بين الأمير يغمراسن بن زيان وسلاطين المماليك، حيث عاصره خلال فترة حكمه كل من المعز أيبك التركماني وأبناؤه، ثم المظفر قطز، ثم الظاهر بيبرس البندقداري وأبناؤه، والسلطان المنصور سيف الدين قلاوون، ومن المستغرب أن لا توجد أية مراسلة بينه وبينهم.

وحتى كاتب يغمراسن بن زيان وهو أبو بكر بن خطاب المرسي لا نجد له رسائل في هذا الموضوع، ومعظم رسائله التي بقيت محفوظة هي التي كتبها عن الأمير يغمراسن بن زيان وابنه عثمان وكانت موجهة إلى الحفصيين أو ملوك غرناطة، لكن توجد رسالة مؤرخة في **07** ذو القعدة **678**هـ/**1280**م، وقد كتبها ابن

خطاب عن الأمير عثمان بن يغمراسن في حياة والده، إلى السلطان التونسي أبي إسحاق الملقب بالمجاهد، وقد حملتها زوجة يغمراسن، وكان موضوعها التوصية بحرم أمير تلمسان المصاحبة لركب الحاج الزياني ومما جاء فيها:"...**فَإِنَّ هَذَا الكِتَابَ يَتَأَدَّى إِلَى البَابِ الكَرِيمِ أَيَّدَهُ الله مُنِيدُ عَبْدَتِهِ وَالِدَة عَبْدِهِ تَلاَوْمَاتَنْ ابْنَةُ مَجَنْ[1] حَفِظَهَا اللهُ تَوَجَّهَتْ إِلَى الحَضْرَةِ الكَرِيمَةِ بِرَسْمِ أَدَاءِ فَرْضِ الحَجِّ يَسَّرَاللهُ مَرَامَهَا، وَلِمَا يَلْزَمُ مِنْ حَقِّ الوَالِدَةِ وَيُرْجَى للابْنِ فِي تَوْفِيَةِ بَرِّهَا مَنْ جَزِيلِ الفَائِدَةِ، رَأَى العَبْدُ أَنْ يُنَبِّهَ حَضْرَتَكُمْ العِلِّيَة عَلَيْهَا، وَيَسْتَوْهِبَ مِنْ كَرِيمِ رَعْيِكُمْ وَاحْتِرَامِكُمْ مَا يَقُودُ الظَّفَرَ بِبُغْيَتِهَا إِلَيْهَا....**"[2].

من هذه المراسلة نلمس مدى اهتمام الأمير الزياني ومبالغته في التوصية بركب الحج لدى السلطان الحفصي، ما يجعلنا نميل إلى أن الوفد قد كان يحمل معه رسالة أخرى إلى السلطان المملوكي الحاكم آنذاك، وذلك لضرورة مرور الركب على الديار المصرية ذهابا وإيابا، لكن لا نجد ما يوثق هذا الطرح.

ويمكن تفسير عدم وجود المراسلات بين يغمراسن بن زيان والمماليك إلى عدد من الأسباب نذكرها فيما يلي:

- الخراب الذي طال الكتب المراسلات بسبب الحروب المتواصلة التي شهدتها تلمسان[3].

- عدم تركيز المصادر المغربية والمشرقية على الدولة الزيانية وحكامها، نظرا لموقعها الذي كان عرضة للخطر الدائم من بني مرين وبني حفص، واختفاء كيانها في عدة فترات من تاريخها.

- ظهور بني مرين كقوة بالمغرب جعلهم في نظر المماليك الدولة التي تستحق أن يتعاملوا معها، إضافة إلى بني حفص، وتركيز المرينيين على إنهاء الكيان السياسي لبني عبد الواد، وكان المماليك على دراية تامة بهذا الموقف.

- مبايعة يغمراسن بن زيان للحفصيين واعترافه بخلافتهم وتوصيته بنيه بذلك، جعل المماليك ينظرون إليه نظرة العداء، حيث ظل بنو زيان على ولائهم للحفصيين، ويظهر ذلك من خلال بعض نصوص البيعة التي تؤكد حرص بني زيان على الاعتراف بالخلافة الحفصية التي كانت تعتبر وريثة الموحدين في بلاد المغرب الإسلامي، ففي نص بيعة يغمراسن بن زيان للسلطان الواثق الحفصي والمؤرخة بيوم7 محرم 677هـ/1279م يظهر جليا موقف بني عبد

الواد من الخلافة الحفصية وأنها الأحق بتمثيل المسلمين، إذ يستعرض نص البيعة تاريخ الخلافة الإسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ثم الخلافة الموحدية فالحفصية التي تعد امتدادا لها، أي أن بني عبد الواد لم يعترفوا يوما بالخلافة العباسية التي أعاد المماليك إحياءها في عهد الظاهر بيبرس البندقداري في القاهرة، ومما جاء في نص البيعة:"...**وما زالت يرثها كابر عن كابر، وتنتقل من أول لآخر، حتى انتهت إلى من ينهض نهوض سلفه الكريم بعبئها، ويدرأ عنها المحادين حق درئها، شمس ضحاها، وبدرليلتها الذي ما نقص المحاق آيته ولا محاها، عصمة سيدنا ومولانا الخليفة المنتصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبو عبد الله بن ساداتنا الأمراء الراشدين أيد الله أمره، وأعز نصره**...."[4]، ويضيف:"...**وبادر إلى الدخول فيها بدار من يعتقد الدخول فيها للخيرات منميا، وفي الدنيا والآخرة منجيا، ودعا إليها من قبله من الأبناء والقرابة وبني عبد الواد، والوزراء، والأعيان والفقهاء، والصدور والصلحاء، فأجابوا إلى ذلك وأصفقوا عليه فيمن أصفق، ورأوه أوفق لهم في معاشهم ومعادهم وأرفق، فبايعوه جميعا...على ما بويع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلفاؤه المتقون، وعلى السمع والطاعة في اليسر والعسر، والمنشط والمكره والحلو والمر، بيعة صحيحة ... معتقدين أن سلامة الأمة ..إنما هو باتباع هذه الإمامة...وهم في اجتلاب مرضاة الخلافة المباركة ساعون، وفي أعقاب صلواتهم وأوقات خلواتهم لها داعون...."**[5].

إن المدقق في فحوى نص البيعة هذا يلاحظ دون شك مدى ارتباط يغمراسن بن زيان بالخلافة الحفصية رغم وفاة مؤسسها الخليفة المستنصر وضعفها في عهد خلفائه، وكون بني زيان أبعد ما يكونون عن البيعة للخلافة العباسية بالقاهرة، لذلك لا نستبعد أن هذا كان من الأسباب التي جعلت العلاقات الزيانية المملوكية تتسم بهذه البرودة من عدم وجود أي اتصال موثق بين الدولتين.

وقد تأخرت بداية هذه العلاقات إلى عهد أبي حمو موسى الأول، الذي تسجل لنا بعض المصادر مراسلة له مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون، عقب نهاية الحصار المريني الطويل لمدينة تلمسان.

2– أثر المرينيين في العلاقات الزيانية المملوكية

قام بنو مرين بدور كبير في تشكيل طبيعة العلاقات الزيانية المملوكية والتحكم في مصيرها بين التأزّم والانفراج، ولا نستبعد رغبة ملوك بني زيان في طلب تأييد سلاطين المماليك أوّل الأمر في سياق صراعهم المستمرّ ضدّ بني مرين، لكنّ المماليك كانوا على دراية تامّة بالوضع السياسي ببلاد المغرب وموازين القوى به، وأنّ بني مرين هم الأكثر قوّة،

والحامون للجناح الغربي للعالم الإسلامي، فحرصوا على تمتين الروابط معهم، وإظهار الودّ نحوهم وكسبهم بالسفارات والهدايا التي لم تتوقف طيلة تاريخ الدولتين[6].

وقد أدى التقارب المملوكي المريني إلى فتور في العلاقات بين بني زيان وسلاطين المماليك، ويعود تاريخ ذلك على الأرجح إلى أيام الحصار المريني لمدينة تلمسان، وما عاناه ملوكها وسكّانها من محن لمدّة ثماني سنوات[7].

وفي أيام الحصار المريني لمدينة تلمسان كانت مدينة المنصورة مقر السلطان، والعاصمة التي كان يفد إليها سفراء ووفود الدول الأجنبية، ومنهم المماليك الذين اطلعوا على الانجازات المرينية وعلى مدى تأزم الوضع بمدينة تلمسان التي تضررت كثيرا جراء الحصار الذي دام من سنة 699 هـ إلى 706 هـ/1299 – 1307م ومات أغلب أهلها.

وكان السلطان يوسف بن يعقوب المريني قد بعث إلى السلطان الناصر محمّد بن قلاوون سنة 704هـ/1304م سفيرا ومعه هدية من الخيل والبغال والإبل والأواني المغربيّة والذّهب في ركب من الحجيج المغاربة قاصدين الحجاز، فقابلهم السلطان المملوكي وأكرمهم وبعث معهم أميرًا رافقهم حتّى قضوا الفرض، ورجع الوفد سنة 705هـ/1304م بهدية من السلطان الناصر مكافأة على هديتهم، ووصلوا إلى يوسف بن يعقوب وهو محاصر لمدينة تلمسان بالمنصورة في ربيع ثاني سنة 706هـ/1305م، ووصل مع السفارة أميران مملوكيان، فقابلهما السلطان المريني وأكرمهما وبعث بهما للسياحة في فاس ومراكش[8].

3- حادثة نهب أعراب زغبة لوفد السفارة المرينية ومدى مسؤولية بني عبد الواد

عاد الوفد المملوكي من فاس في 707هـ/1307م وكان رفقته ركب كبير من المغاربة قاصدين الحج، وهدية من السلطان أبي ثابت خليفة يوسف بن يعقوب[9]إلى سلطان المماليك الناصر محمّد بن قلاوون، ومرّ الرّكب بتلمسان، وكانت قد تخلّصت من الحصار المريني، وكان بها أبو زيان[10]وأبو حمو موسى الأوّل ابنا عثمان بن يغمراسن، لكنّ الملك الزياني لم يحتفي بهما، ممّا يدلّ على مدى انزعاج الزيانيين من موقف المماليك الموالي لأعدائهم بني مرين، وطلب الوفد المملوكي من بني زيان خفيرًا يخفرهما إلى تخوم الدّولة الزيانيّة شرقا، بسبب اضطراب المسالك في المغرب الأوسط بعد وفاة يوسف بن يعقوب المريني، فبعث معهم بعض الأعراب لحراستهم، لكنّ اعترضهم قطاع طرق من أعراب زغبة[11] بنواحي المدية ونهبوهم[12].

وكان الاعتقاد السائد آنذاك أنّ عمليّة النّهب تلك قد تمّت بتدبير من السلطان أبي حمو الأوّل بالتحالف مع أعراب زغبة[13].

والظاهر أن بعض الباحثين المحدثين قد ألصق التهمة بالعاهل الزياني، وأن اضطراب المسالك بالمغرب الأوسط راجع لتشجيع أبي حمو الأول للقبائل العربية من أجل ترويع وفود السفارات التي كانت بين المغرب الأقصى ومصر[14]، حتى أن المماليك قد اضطروا لتوقيف إرسال السفارات إلى بلاد المغرب، واكتفوا بإرسال المكاتبات رفقة الوفود المغربية أو مع وفد الحج[15].

وكانت هذه الحادثة سببًا في استياء السلطان الناصر محمد بن قلاوون من السلطان الزياني أبي حمو موسى الأوّل، فأرسل إليه يعاتبه ويؤنّبه، كما بعث له بهدية مكوّنة من كوزين من دهن البَلَسَّان المستعمل عند المماليك، وخمسة مماليك من الترك بخمسة أقواس، فهمها السلطان أبو حمو على أنّها احتقار له، فأمر كاتبه القاضي **محمّد بن هدية**[16]بأن يكتب ردًّا على رسالة الملك الناصر جاء فيها:" **أمّا عتابك على شأن الرّسل وما أصابهم في طريقهم، فقد حضروا عندي وأبنت لهم الاستعجال حذرًا ممّا أصابهم، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من غوائل الأعراب، فكان جوابهم: إنّا جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف، مغترين بشأنهم يحسبون أنّ أمره نافذ في أعراب قبائلنا، وأمّا الهدية فردّت عليك: أمّا دهن البلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلاّ الزيت، وحسبنا به دهنًا، وأمّا المماليك الرماة فقد افتتحنا بهم اشبيلية وصرفناهم إليك لتفتح بهم بغداد والسّلام**"[17].

إنّ صدور مثل هذه الرّسالة عن السلطان أبي حمو يدلّ على مدى استياء الزيانيين من المماليك لتفضيلهم بني مرين على حسابهم، فقد كتبت الرسالة بصيغة المفرد المخاطب ولم تستعمل فيها ميم الجمع ولا نون الجمع وهذا الأمر يخالف تماما أسلوب كتابة الرسائل في المغرب والأندلس، وهو ما يزيد من التأكيد على أنّ استياء بني زيان من المماليك كان في قمّته[18].

ويقول القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشا أنه جرت العادة أن تكون المكاتبات الواردة من ملوك تلمسان إلى سلاطين المماليك كالتالي:" **ورسم مكاتبته فيما وقفت عليه في المكاتبة الواردة على صاحب الديار المصرية أن يبتدأ الكتاب بقوله: إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان بالألقاب المعظمة المفخمة ثم يدعى له بما يناسب الحال، ويؤتى بخطبة، ثم بالسلام، ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع، ويختم بالدعاء المناسب**"[19].

لكننا لا نجد احترام هذه القاعدة في الكتابة مما يؤكد لنا الطرح السابق.

4 – رسالة أبي تاشفين عبد الرّحمان الأوّل إلى الملك الناصر ومحاولة تحسين جو العلاقات

لمّا تولى أبو تاشفين عبد الرّحمن الأوّل الحكم بتلمسان سنة 718 هـ/1318م، حاول بناء دولة لها حضورها في المحيط المغاربي والإسلامي، فركز على توسيع رقعتها وتحصينها والإكثار من المؤسسات، كما حاول إعادة ربط العلاقات وإصلاح الأمور مع سلاطين المماليك بعد تأزم الأمور في عهد أبيه أبي حمو موسى الأول، فأرسل سنة 725هـ/1325م رسالة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون معبرًا له فيها عن حسن نواياه وموضّحًا له سبب استياء الزيانيين من المماليك.

ولا تذكر المصادر كاتب الرسالة، لكن المرجح أنه الفقيه أبو عبد الله بن مدورة الذي تولى كتابة الإنشاء في عهد السلطان أبي تاشفين الأول[20].

وجاء في هذه الرّسالة بعد ذكر الألقاب الملوكيّة ممّا اختص به سلاطين المماليك في المكاتبات:" **سلام عليكم ورحمة الله و بركاته، من أخيكم البَرَّ بكم الحريص على تصافيكم، عبد الرّحمان بن أبي موسى بن يغمراسن. و إنّا كتبنا إليكم كتب الله لكم أنجح المقاصد وأرجحها و أثبتها عزًّا، وأوضحها من حصن تلمسان حرسها الله تعالى**"[21].

وفي سبب استياء ملوك بني زيان من سلاطين المماليك كتب أبو تاشفين:" **وقد وجب شكركم علينا من كلّ الجهات، و اتصلت المحبّة والمودة طول الحياة، غير أنّ في قلوبنا شيئًا من ميلكم إلى غيرنا واستئناسكم**"[22]، وكان قصده ميل المماليك إلى توطيد علاقاتهم مع بني مرين على حساب بني زيان.

لكن أن أحد الباحثين[23]المختصين في مراسلات المغرب الإسلامي ذكر أن أمير تلمسان كان يقصد ميل المماليك إلى الحفصيين الذين كان في صراع معهم حول مدينة بجاية، وكانوا على علاقة مودة مع المماليك، لكن المرجح هو الرأي الأول خاصة وأن أبا تاشفين الأول كان في حركة دائمة نحو الشرق والغرب من المغرب الأوسط ساعيا إلى تدعيم دولته بعد مدة من تأزم الأوضاع منذ أيام الحصار الذي فرضه المرينيون على مدينة تلمسان.

ومما يفهم من الرسالة أيضا هو أن الدولة الزيانية في عهد أبي تاشفين عبد الرحمن الأول كانت من القوة بحيث يمكن للمماليك إقامة علاقات تعاون معها في ظل الاحترام المتبادل، خاصة وأنه قد نبذ طاعة الحفصيين وحاصر مدينة بجاية وضيق عليها الحصار، وذلك للضعف الذي أصاب بني حفص، وجاء في الرسالة:"**...ونحن والحمد لله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء بكريم حقكم، وليس بيننا وبين بلادكم من يخشى والحمد لله من كيده، ولا يبالى**

بهزله ولا جده...."[24]، وهي إشارة إلى تجاوز الزيانيين للخطر الحفصي لأن الدولة القوية الموجودة بين المماليك وبني زيان هي الدولة الحفصية، وإشارة من أبي تاشفين إلى حلمه في اكتساح الأراضي الحفصية إن تمكن من ذلك وبالتالي يصبح لدولته حدود مع الدولة المملوكية التي كانت تلامس حدودها الغربية طرابلس الغرب.

وكان حامل الرسالة أحد الأعلام التلمسانيين ورد ذكره فيها بالشكل التالي:" **وقد توجه إلى بابكم الشريف قر ابتنا الشيخ الصالح الحسيب الأورع الأكمل الزاهد أبو زكريا يحيى بن الشيخ الصالح المر ابط المقدس المرحوم أبي عبد الله محمد بن جرار الوادي، وهو من أهل الدين والخير...."**[25]، وكان هذا الشيخ من مشايخ بني عبد الواد من فرع ابن طاع الله، وترأس الكثير من وفود الحج[26].

وقد أرفقت الرسالة المكتوبة برسالة شفوية موجهة للملك الناصر المملوكي تضمنت طلب إصلاح العلاقات والجنوح نحو الود والإخاء " **والمحبة والصفاء، مما يعجز عنه الكتاب، فالمقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه، وغرضنا أن تعرفوه بجميع ما يصلح لذلكم المقام الشريف مما في بلادنا، ويصلكم إن شاء الله في أقرب الأوقات، على أحسن الحالات، ولكم بذلك علينا المنة العظمى، والمزية القصوى، والله تعالى يبقي ذلك المقام الشريف محروس المذاهب، مشكور المناقب، إن شاء الله تعالى**"[27]، وهذه الخاتمة دعوة صريحة من الملك الزياني أبي تاشفين عبد الرحمن الأول وإصراره على تحسين أواصر المحبة بينه وبين المماليك.

لكن دعوة أبي تاشفين هذه لم تلق ترحيبًا من سلاطين المماليك[28]، هذا ما تذكره بعض الدراسات الحديثة، والمؤسف أننا لا نعثر على أية رسالة موجهة من المماليك إلى بني زيان بالرغم من أن ديوان الإنشاء المملوكي قد احتفظ لنا بالصيغة التي اتفق عليها كتاب الإنشاء في ماسلاتهم لسلاطين تلمسان، حيث يذكر القلقشندي أن المكاتبات كانت تفتتح بذكر الألقاب السلطانية من جهة المرسل " من السلطان الأعظم الفلاني... ونصر جيوشه وأعوانه، ثم يقول: تحية يفتتح بها الخطاب، ويقدم منها ما زكا وطاب، ثم تقال سجعات مختصرة يخص بها صاحب الحضرة الشريفة العلية، الطاهرة الزكية، حضرة المقام العالي، السلطان السيد، الأجل، العالم، العادل، المجاهد، المرابط، المثاغر، المؤيد، المظفر، المنصور، الأسرى، الزكي، الأتقى، المجاهد في الله، المؤيد على أعداء الله، أمير المسلمين"، وهذه الصيغة تشبه الصيغة التي كان يكتب بها للسلاطين الحفصيين[29].

والراجح أن المرينيين الذين كانوا في صراع دائم مع بني عبد الواد هم الذين كانوا يتحكمون في سياسة المماليك تجاه ملوك تلمسان، وكانوا يكثرون من السفارات والهدايا إلى

القاهرة كسبا لرضا المماليك الذين كانوا يرون فيهم حاملي لواء الجهاد ضد الصليبيين في الأندلس، وكانت كلمتهم مسموع ونافذة لدى سلاطين القاهرة، وذلك ما سيتضح أكثر فيما يلي.

وجاء في رسالة أبي الحسن المريني عقب غزوه لمدينة تلمسان أن القضاء على دولة بني عبد الواد وملكها أبي تاشفين عبد الرحمن الأول كان سببا في تأمين طرق الحج والسفارات بين المغرب والمماليك حيث جاء فيها:" **والحمد لله الذي طهر بأيدينا هذه الأرجاء من أرجاسه، ورحض عنها بأيدينا أوضار أدناسه وأنجاسه، وأتاح لأهلها بهلاك هذا المريد المراد، وأراح منه ومن شيعته البلاد والعباد**"، ونلمس من هذه العبارات مدى الحقد والكره الذي كان يحمله أبو الحسن لأبي تاشفين وبني عبد الواد من خلال عبارات الوصف الدنيئ لسلطان تلمسان، "**ولو لم يكن إلا ما نال الحجا من تعنيه وتعديه، وطال عليهم من تعرضه لهم وتصديه، حتى حجز عن الحجاز الشريف قصاده، وحجر بقطع السبيل عن بيت الله الحرام من أراده، فكم سلب الحجاج وسد عليهم المسالك والفجاج، وفرق فريقهم وعوق طريقهم**" وهي إشارة إلى حركة أبي تاشفين في المغرب الأوسط لإخضاع القبائل وكذلك، تضييقه على الدولة الحفصية من ناحية الشرق وحصاره لبجاية وسيطرته على المسالك والدروب، "**والآن بحمد الله حقت الحقائق، وارتفعت العوائق، وصح العليل، ووضح السبيل، وتسهل المرام، وتيسر القصد إلى البيت الحرام، مكان ترده الزوار عليكم أرسالا، ووفود الأبرار للسلم خفافا وثقالا، يأتون من كل فج عميق، ويقضون ما يقضون من مناسكهم، آمنين في مسالكهم إلى البيت العتيق**"[30]، أي أن حركة أبي الحسن نحو تلمسان كان من أهدافها إعادة فتح سبل وطرق الحج بين المغرب الأقصى وبلاد المشرق.

5 – موقف المماليك من سقوط تلمسان 737هـ/1337م

في سنة 735هـ/1335م تحرك أبو الحسن المريني إلى مدينة تلمسان، واستولى في طريقه على ندرومة وهنين، كما استولى على وهران، وبعث جيوشه لإخضاع المغرب الأوسط، ثمّ نزل عاصمة الزيانيين وحاصرها لمدّة سنتين، وفي يوم الأربعاء 28 رمضان737 هـ/1337م، اقتحمها عنوة وقتل السلطان أبا تاشفين وقادته، وبقتله انتهت فترة من تاريخ الدّولة الزيانية لمدة دامت من 737هـ/1337م إلى غاية 760هـ/1360م[31].

وعلى إثر هذه المستجدات بعث أبو الحسن المريني برسالة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون يخبره بما تمّ على يديه من الفتوح، وفيها وصف له خبر بني زيان وكيف حاصر تلمسان وضيّق عليها الحصار، وقذفها بالمجانيق، وكيفيّة اقتحامها، وقتل ملكها أبا

تاشفين[32]، فكتب له الملك الناصر برسالة، هنّأه فيها بمنجزاته، و أبدى له تأييد المماليك لبني مرين[33].

وجاء في رسالة أبي الحسن :" **...فإنا كتبنا إليكم ... من منصورة "تلمسان" حرسها الله تعالى،... لمواصلة الكتب بسار الأنباء، فإن من أقربها عهدا، وأعذبها حديثا يهادى ويهدى، ما كان من أمر العاق قاتل أبيه، الحال من إقليم تلمسان وممالكها بالمحل النبيه..."**[34]، حيث يخبر أبو الحسن المريني سلطان المماليك بأخبار حملاته بالمغرب الأوسط، واصفا أبا تاشفين عبد الرحمن الأول بالعاق قاتل أبيه، ويواصل ذكر نبذة من تاريخ بني زيان وعلاقتهم العدائية مع مرين حتى حدوث الحصار الطويل، إذ يقول:"**وذلك أن أسلافه بني زيان، كانوا قد استولوا على هذه المملكة في سالف الزمان، ولم يزل بينهم وبين أسلافي المحتوين على ملك المغرب الأقصى وقائع تورد الحمام، وتذيقهم الموت الزؤام، فيدعون المنازعة، ويعودون للموادعة، ثم لم يلبثوا، أن ينكثوا، ولم يصبروا، أن يغدروا،إلى أن كان من حصار عمنا المقدس المرحوم أبي يعقوب قدس الله تربته إياهم، فأكثر موتهم وكدر محياهم، وتمادى بهم الحصار تسع سنين، وما كانوا غير شرذمة قليلين**"[35]. ويذكر الناصر المملوكي بعلاقاته مع أبي يعقوب المريني قائلا :"**وهنا لكم اتصلت بينكما المراسلة، وحصلت الصداقة والمواصلة، حتى حم موته، وتم فوقه، رحمة الله تؤمه، ورضوانه يشمله ويعمه، فنفس خناقهم، وعاد إلى الإبدار محاقهم، وصرف القائم بعده عنهم الحين، عما كان هو رحمه الله قد طوع من بلاده مغراوة وتجين، فاتسعت عليهم المسالك، وملكوا ما لم يكن فيه لأوائلهم طمع من الممالك، لكن هذا الخائن وعمه كانا ممن أسأرته الفتن، وعم به من غوامر المحن، فسلكا مسلك أسلافهما في إذاعة المهادنة، والزوغان من الإعلان بالمفاتنة"**[36]. ثم يذكر علاقة أبي تاشفين مع السلطان أبي سعيد المريني، والسبب الذي دعا إلى قبول السلم معه وهو المصلحة، لكن أبا تاشفين برزت له طموحات في التوسع على حساب أراضي الدولة الحفصية:"**ولما سول الشيطان لهذا العاق قتل والده، والاستيلاء على طارفه وتالده، لم يقدم عملا على إشخاص إرساله بحضرة مولانا المقدس أبي سعيد.. فاقتضى النظر المصلحي حينئذ موافقته في غرضه، وإن كان باطنه على مرضه، فقوى أمره.. وسرى إلى بلاد جيرانه الموحدين داؤه، وطال عليهم تضييقه واعتداؤه، واستشعر ضعفهم عن مدافعته، ووهنهم عن مقاومته.. و أقام على بجاية عشرين سنة يشد على بجاية الحصار، ويشن على أحواز تونس الغار.. فأدى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى أعزه الله تعالى أن بعث إلينا**

وزيره في طلب النصرة رسولا.. فخاطبنا إذ ذاك هذا الخائن العاق مبصرين، وبقوله تعالى " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما" مذكرين، فما زادته الموعظة إلا أشرا، ولا أفادته التذكرة إلا بطرا، وحين ذكر فلم تنفعه الذكرى، وفكر فلم يتيسر لليسرى، امتثلنا فيه أمر الله تعالى المرتب على قوله " فإن بغت إحداهما على الأخرى" فأزمعنا قدعه، وأجمعنا رد ردعه"[37].

ومنذ استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان، امحت الدولة الزيانية من الخريطة السياسية للمغرب الإسلامي، وتواصل الأمر أيام ابنه أبي عنان فارس أي بين سنتي 737-760هـ/1337-1360م، ما عدا الفترة الانتقالية التي ميزها عودة أبي ثابت، ثم تجددت معالمها بعد موت أبي عنان ومجيء أبي حمو موسى الثاني للحكم، لكن لم نعثر من بين الوثائق والمصادر المتاحة لنا أية مراسلات بينه وبين المماليك وذلك أمر يصعب تفسيره، خاصة وأن السلطان أبي حمو الثاني محيي الدولة الزيانية كان مهتما بتوطيد حكمه وبعث الدولة إقليميا ودوليا. واستمر الوضع إلى غاية انتقال الحكم إلى أيدي الجراكسة في القاهرة، وهنا تسجل لنا المصادر عودة جو العلاقات الودية.

6 - العلاقات في عهد المماليك الجراكسة

هدية أبي زيان إلى الظاهر برقوق

تولى أبو زيان الحكم في تلمسان بعدما تم إطلاق سراحه من طرف بني مرين في عهد أبي فارس، واستمر حكمه بين سنتي (796 هـ – 801هـ/1394- 1399م)[38].

وقد عاصر عهده حكم الملك الظاهر برقوق أول ملوك الجراكسة، وقد بعث هذا الأخير بهدية إلى ملوك المغرب، ومنهم السلطان الزياني أبي زيان محمّد بن أبي حمو سنة 799هـ/1397م، محاولة منه لكسب التأييد لحكمه وتلطيف جو العلاقات الودية بعد القضاء على سلطة المماليك البحرية.

وكانت الهدية الموجهة إلى الأمير الزياني مكوّنة من القماش والطيب، فردّ عليه أبو زيان بهدية أخرى مكوّنة من ثلاثين من الجياد المسرّجة والأقمشة، ومعها قصيدة من نظمه يمدح فيها الظاهر برقوق[39].

وأورد القصيدة كل من المؤرخين عبد الرحمن بن خلدون، ومحمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي[40]، وهي من البحر الكامل، وتضمنت عبارات الشوق إلى المقام النبوي بأرض الحجاز، ثم انتقلت إلى ذكر العلاقات الطيبة والودية التي كانت بين الملكين الزياني والمملوكي.

وكانت هذه السفارة والهدايا المتبادلة قد ساهمت في التخفيف من حدّة التوتر في العلاقات السياسيّة التي كانت في عهد المماليك البحرية.

لكن منذ هذه الفترة لا نجد أية مراسلات بين الدولتين إلى غاية سقوط دولة المماليك سنة 923هـ/1517م، وهو الوقت نفسه الذي شهدت فيه تلمسان بداية التدخل التركي عن طرق الأخوين عروج وخير الدين، وفي ظل غياب الشواهد التاريخية لا نجد موقفا واضحا للزيانيين من سقوط الدولة المملوكية وقيام الدولة العثمانية التي سوف تضم إلى أجزائها أراضي المغرب الأوسط منذ إنهاء العرش الزياني سنة 962هـ/ 1554م[41].

الهوامش

([1])- مجن هو عم يغمراسن بن زيان والمرأة المذكورة هي زوجته وابنة عمه. يحيى بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج1، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1980، ص190.

([2])- أبو بكر بن خطاب المرسي، **كتاب فصل الخطاب**، تحقيق: أحمد عزاوي ضمن كتاب: **المغرب والأندلس في القرن السابع/13م دراسة وتحقيق لديوانيات كتاب فصل الخطاب في ترسيل ابن خطاب**، مطبعة ربا نت، الرباط، 2008، ص157-158.

([3])- يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 114.

([4])- ابن خطاب، المصدر السابق، ص 134.

([5])- ابن خطاب، المصدر نفسه، ص 135.

([6])- محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، الطبعة الثالثة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص ص 167-227.

([7])- حول هذا الحصار يمكن الرّجوع إلى: عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبرودیوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج7، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 194 – يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 210 – محمد بن عبد الله التنسي، **تاريخ بني زيان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تحقيق وتعليق: محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 130- عطاء الله دهينة، **الحصار الطويل**، ضمن كتاب: **الجزائر في التاريخ – العهد الإسلامي**، ج3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 369-379.

([8])- الأمير ركن الدين بن عبد الله المنصوري بيبرس الدوادار، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق، زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001، ص 409 – عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج5، ص 409.

([9])- توفي قتيلاً وهو محاصر لتلمسان وتولى بعده ابنه أبو سالم، ثمّ قتل و تولى أبو ثابت الّذي رحل عن تلمسان و صالح أبا زيان وأعاد له ممتلكاتهم بالمغرب الأوسط. بيبرس الدوادار، المصدر السابق، ص 419-422.

([10])- حكم من 703 إلى 707هـ/1303-1307 – التنسي، المصدر السابق، ص 131.

([11])- زغبة: من عرب بني هلال، كانت تضم عدّة بطون، و كانت مواطنهم من المسيلة إلى تلمسان بتيطري. ابن خلدون، العبر، ج6، ص 85 – مصطفى أبو ضيف، **القبائل العربية في المغرب في عصر الموحين وبني مرين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982،ص 155.

([12])- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج5، ص 905.

([13])- عبد الرحمن ابن خلدون،العبر، ج7، ص 470.

([14])- أحمد عزاوي، **العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط من خلال نصوص عربية للمراسلات و اتفاقيات السلم والتجارة، ج2 (الغرب الإسلامي والشرق الإسلامي / الشرق الإسلامي والغرب المسيحي : القرنان 7-8 هـ/13-14م)**، مطبعة ربا نت، الرباط، 2011، ص21.

([15])- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص470.

([16])- القاضي الكاتب أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي هدية القرشي، من أحفاد عقبة بن نافع الفهري فاتح بلاد المغرب الإسلامي، تولى ديوان الإنشاء في عهد أبي حمو موسى الأول، واستمر قاضيا في عهد أبي تاشفين الأول، وكان عالما في اللغة العربية وآدابها إضافة إلى علم الوثائق. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص51-52.

([17])- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج7، ص 470-471.

([18])- أبو العباس أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج7، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1985، ص 30 – بوزياني الدراجي، نظم **الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 155.

([19])- القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص84.

([20])- يحيى بن خلدون، البغية، ج1، ص 133- بوزياني الدراجي، الرجع السابق، ص 146.

([21])- القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص 86.

([22])- المصدر نفسه، ج8، ص 86.

([23])- أحمد عزاوي، المرجع السابق، ج2، ص114.

([24])- القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص86.

([25])- المصدر نفسه، ج8، ص86- 87.

([26])- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص237.

([27])- القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص87.

([28])- عبد الفتاح عاشور، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962، ص 346.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

([29])- القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص 385.

([30])- المصدر نفسه، ج8، ص97-98.

([31])- ابن خلدون، العبر، ج7، ص 536 – يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 219 – التنسي، تاريخ بني زيان، ص 144-146.

([32])- القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص 87-99.

([33])- المصدر نفسه، ج7، ص ص 395-407.

([34])- المصدر نفسه، ج8، ص90.

([35])- المصدر نفسه، ج8، ص 90.

([36])- المصدر نفسه، ج8، ص90.

([37])- المصدر نفسه، ج8، ص91.

([38])- التنسي، المصدر السابق، ص 210.

([39])- التنسي، المصدر السابق، ص 220 .

([40])- المصدر نفسه، ص ص 221 – 227.

([41])- صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830**، ط3، دار هومة، الجزائر، 2011، ص71-73.